

عمر الخيام - بين الحقيقة والأسطورة

للأستاذ السيد أحمد مصطفى الخطيب

(بجبة ما نشر في العدد الماضي)

الأسطورة الثالثة

لو قال لنا أحد الذين يؤثرون جانب الجدول المقيم واللهاجة المقوتة ، ما بالكم قدامكم الدنيا ضجيجاً ومهيجاً يتحدثكم عن الخيام ورباعياته ؛ إنى لأتحدثكم جميعاً . هاتوا برهانكم إن كنتم سادقين . إننى أذكر أن تكون للخيام رباعية واحدة لا رباعيات تبلغ الألف والمائتين عدداً ، وأرى كل مائة في هذا الخصوص ليس إلا محض وهم باطل لا يجاوز نطاق الحدس والتخمين ، فالخيام لم يترك وراءه ديواناً بخط يده ، ولم يشر إلى شعره في تأليفه المديدة ، ولم يعمل على أحد من تلامذته ما يسمى اليوم بالرباعيات ، كما أن (جهمار مقاله) أقدم سفر تاريخي عثر عليه المصنفه (نظامي مردوسي سمرقندي) تلميذ الخيام الخاص لم يذكر ولا كلمة واحدة عن رباعيات أستاذه ، رغم أنه زار قبره بمد وقامه ببضع سنوات فقط ، وذكر أموراً في مؤلفه أقل أهمية وأسأل شائناً بكثير من الرباعيات ..

إن جميع ما يدعى ويقال بهذا العدد إن هو إلا أسطورة جميلة وتفكير شعري يديع نسجها الوم وزينها الخيال ، فتراتها منزلة غيرها من الأساطير المصطنعة التي لم تقم لها قاعة إلا بعد أن مرت على موت الشاعر مدة قرون

أجل ! ماذا يكون جوابنا إن جابهنا هذا الجدول اللجوج يمثل هذا المنطق الساخر العايب ، ثم ألح علينا في عناد وإصرار أن تثبت له إثباتاً لا يتطرق إليه أى شك أن للخيام رباعيات حقيقية ترضى عن نسبتها إليه أساليب التحقيق العلمي الدقيق في عصرنا الحديث هذا ..

في الحق أننا عاجزون تمام المعجز عن أن نكسر لهذا الكبار

الحديث الصاع صاعين ومن نوفيته حقه السكيل كيابين ، وأن نسخر منه بنفس الطريقة التي سخر بها هو منا ، وإن كنا نملك في الوقت نفسه أدلة وبراهين لا تقبل الدحض ، ونستطيع ببرضنا إياها عليه أن يجمله يخفف من غلوائه وبنقل من خيلانه ويرتد شيئاً فشيئاً إلى هدوء العقل واتزانه ..

ثالثاً الأؤكد حتى الآن - كما يدعى صاحبنا الجدول - أن الخيام أهل في حياته أن يكتب سيرة نفسه بقلمه ، أو أنه كتبها ولم تصل إلينا لاستداد يد الضياع إليها ، أو أنها لم تضع ولكنها في جهة مجهولة لم تتناولها يد المحققين بمد ، غير أنه ثابت ثبوتاً قاطعاً أيضاً أن الخيام لم يكتب في الفارسية من الشعر سوى الرباعيات وحدها ؛ أما هل جمع كل ما كتبه من هذه الرباعيات وضمها بين دفتي كتاب خاص بنفسه ، أو أملاها على أحد من طلابه ؛ فذلك ما نحن منه في ظلام داس حتى الآن ، وأظن الأمر سيبقى كذلك إلى الأبد إلا إذا عثر على دلائل مادية يقلب السائلة رأساً على عقب ويشير بحجى البحث تغييراً تاماً في يوم من الأيام ..

إن أقدم نسخة للرباعيات بين أيدينا اليوم وهي الموسومة بـ (رسالة الرباعيات) يرجع تاريخ كتابتها إلى نحو ثلاثمائة عام تقريباً بعد موت الشاعر ، وقد عثر عليها في مكتبة بولدين بأ كسفورد وتسمى بنسخة السراوسلي ، وهي نسخة منقولة عن غيرها من النسخ وليست أصلاً . أما من هو النساخ الذي نقلها ؟ وعن أية نسخة نقلها ؟ وهل أن الرباعيات الواردة فيها والباقع عددها ١٥٨ رباعية ؛ كلها للخيام ذاته أم أن هناك بينها الدخيلات والنحولات ؟ ثم كم عدد أوائلك في حالة اعتراضنا اندساسها بين الرباعيات الأصيلة .. كل هذه أسئلة وعلامات استفهام تدور في أذهان الباحثين والمدققين منذ أن عرف الغرب شاعر الشرق ولكن بدون جدوى ، ويتبرأ أن يثر لها على جواب شاف يقطع الشك باليقين والحيرة بالأطمئنان ..

على أننا نرى كل هذا يجب أن نعلم في الوقت نفسه أن المعلومات السابفة الأتفة الذكر نملها علينا طيبة النطق المجرى فحسب ، وأن نمة أموراً كثيرة نعلمها من حياة هذا الشاعر

كبير من الناس ويرسمونها على أنها صورة حقيقية للخيام
لقد كان الخيام قبل كل شيء فيلسوفاً تزيها
وأديباً عبقياً ، زينته الوفاة ويسمو به جلال الدم على أقرانه من
أهل زمانه .. وكان إلى ذلك ذكي الفؤاد متوقفاً القريحة ، صاحب
رأى ؛ يجهز بالحق وبمباراة الشهادة أينما وجدت .. فلم هذا جاهره
بالصومة فريق من رعاة الصوفية في زمانه ، كانوا يتخذون
الدين وسيلة لاغاية ، فأطلقوا أسنهم عليه ودأبوا على نشر كل
باطل عنه وإساق كل تهمة كاذبة به حتى لقد رموه بالكفر
والإلحاد أيضاً ، وكل ذلك لأنه كان يكشف عن ربهم ونفاقهم ،
ويعلن عن جهلهم ونمصهم دون خوف ولا حذر

قال عنه شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري في كتابه
الموسوم بـ (تزهة الأرواح وروضة الأرواح في تواريخ الحكماء
المتقدمين والتأخرين) الذي ألفه في القرن السادس الهجري
ما يلي بحروفه :

(كان الخيام عالماً بالفقه واللغة والتواريخ .. دخل ذات يوم
على الوزير عبد الرزاق وكان عنده إمام القراء أبو الحسن النزالي
وكانا يتكلمان في اختلاف القراء في آية .. فقال الوزير : على الخبير
سقطنا . ثم سأل الخيام فذكر اختلاف القراء وعلل كل واحد منها
وذكر الشواذ وعقلها وفضل وجهاً واحداً .. فقال النزالي : كثر الله
أمثالك في العلماء فأبى ما ظننت أن أحداً يحفظ ذلك من القراء
فضلاً من واحد من الحكماء .

ودخل عليه حجة الإسلام النزالي يوماً وسأله مسألة فلكية
فأطال عمر الخيام الإيضاح حتى أذن الظهر .. انتهى كلام
الشهرزوري)

ومن بين مستغفات الخيام البديدة كتابه (رسالة في الجبر
والتقابلة) كتبها في العربية وترجمت إلى الفرنسية وطبعت في
باريس سنة ١٨٥١

٢ - كان الخيام ينزل في الرتبة الأولى من أهل زمانه ،
يتسابق إلى خطب وده الوزراء ؛ وكان الملك سينجر يجلسه
على العرش بجانبه توقيراً له ، وكان متمبداً زاهداً مذهباً إلى
المعوم والتدريس ، نافضاً يده من الأمور الدنيوية التي تشكالب

وشخصيته وأخلاقه وبيئته وآثاره ومؤلفاته ، كما أن هناك مؤرخين
معروفين ، وعلماء مشهورين ، وفقهاء ومتصوفين ذائمي الصيت
مرموق القام تناولوا عدداً غير قليل من رباعيات الخيام في كتبهم
ومصنفاتهم وهم معاصروه بالتمليقات المتنوعة ، وتناقشوها مناقشة
فيها اللين والموادة تارة ، والعتف والقسوة تارة أخرى ، فإذا جاز
لنا أن نتشكك في صحة إسناد كل الرباعيات المتداولة إلى الخيام
فإنه لا يجوز لنا إطلاقاً أن نتشكك في صحة نسبة بعضها إليه على
الأقل .. ذلك البعض الذي يمثل آراء وأخلاق وشخصية وظروف
بيئة الخيام التي نعرفها والتي يمكن اعتبارها في عداد الحقائق
التاريخية التي لا تقبل أي جدل أو نقاش

إذن يظهر أن الألف والثلاثين رباعية التي تطارد
الخيام اليوم هنا وهناك في الشرق والغرب وتثير حوله
طوفاناً من الضجيج والصبغ ، ويجمع له الأنصار والأصدقاء ،
وتؤلب عليه الأعداء والتائين ؛ ليست سوى أسطورة ضخمة
كثيرها من الأساطير ، تقابلها حقيقة متواضعة تتمثل في عدد
متواضع من الرباعيات معترف بها اعترافاً كاملاً ويبلغ الأربع
والثمانين رباعية فقط ، وذلك استناداً إلى أسدق وأحدث البحوث
العلمية في هذا الشأن حتى يومنا هذا

الأسطورة الرابعة

لم نسمع أن شاعراً أو ذى في سمته بدمه مونه كما أودى الخيام
أو أصابه من الاتهامات الكاذبة والافتراءات الدبرية ما أصاب
هذا العبقرى العظيم والأديب الفحل والتابفة الأوحده

ولوسألنا أي واحد من هؤلاء الذين سمعوا عن الخيام ولم
يصدقوا ، وقرأوا منه ولم يتنبهوا ، أن يصف لنا شاعر الرباعيات كما
يتصوره هو أو كما يصوره له الروم بالأخرى ، لما نمدى نطاق
وصفه إياه عن أن الخيام كان شاعراً طابناً لاهياً ، خليماً فاجراً ،
يقضى وقته متنقلاً من حانة إلى أخرى ، تدبجه الكأس ليل نهار ،
لا يقين من سكرة إلا ليستلم إلى أخرى ؛ ثم هو على ذلك ملحد
جاحداً ملن حرباً شعواء على الأديان كلها ، وهاجم المتعبدين والزهاد ،
ورسالته في الحياة : لا تفارق الحجرة حتى تموت

هذه هي الصورة الشوهاء المزيفة التي بتخيلها عدد

عليها الأطماع وتمطرع دونها الأحقاد ، وكان يلقب بحجة الحق الإمام ممر

٣ - لم يثبت إطلاقاً وعلى أى وجه أن الخيام قد ذاق الحجرة طوال حياته ولو مرة واحدة

٤ - كان الخيام طبيباً بارعاً مبروراً قاله المل الأول بين أطباء مصره المشهورين

٥ - كان مدرساً جليل القدر في نيسابور التي أنجبت عدداً كبيراً من علماء الإسلام في العلم والأدب

٦ - كان يكتب رباعياته من حين إلى حين في مجالس ممره وحديثه وبين خاصته ، وكانت هذه الرباعيات تنتقل من يد إلى يد كباقة من الزهر تفوح بالمطر وتمبق بالشذا ، فيدونها هذا وذاك من أسدقائه وتلاميذته كتذكار أو كهدية نادرة من العالم الأكبر ، في حواشي كتبهم وفي بطون كراويةهم

٧ - كان وصف الحجرة والإغراق في التنفى بجزاياها (مادة) ذلك المصير بالنسبة للأدباء الفرس كما كان التنفى ؛ (ليلي) ر (ديار ليلي) التقليد المصري السائد في العهد الأموي بالنسبة للشعراء العرب

وكنى الخيام دليلاً على علو منزلته وسامى مقامه ، وجليل قدره هذه الأبيات التي وجهها إليه في مسهل إحدى وصالته الإمام أبو النصر محمد بن عبد الرحيم النسوي قاضي الديار الفارسية آنذاك وتلميذ الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا

قال الإمام أبو نصر :

إن كنت ترمين ياربح الصبا ذمى فاقرى السلام على العلامة الخيمى
بومى لديه تراب الأرض خاضعة

خضوع من يجتدى جدوى من الحكم
فهو الحكيم الذى تمق سحائبه ماء الحياة رفات الأعظم الرمم
هذا هو الخيام الحقيق لا الأسطوري ، الخيام المجرى من تراويق
الباطل وبهارجة ، المارى من ثوب الهبتان وأسبائه

نماذج منه شعر الخيام

الجال أبيات فريدة وصلت إلينا نذل على علو كعبه ، وسمة اطلاعه
ورسوخ قدمه في العربية وفنون بلاغتها ، حتى يستحق أن يمد
بحق قرناً لأعظم الشعراء العرب في جميع العصور

فلنتمع إليه الآن في هذه القطعة التي نظمها في الفخر على
طريقة أبي الملاء الممرى في قصيدته المشهورة (ألاف سبيل
المجد ما أنا فاعل)

قال الخيام :

إذا قمتت نفسى بميسور بلغة
أمنت تصاريف الحوادث كلها
ولى فوق هام النيرين منازل
أليس قضى الأفلاك في دورها بأن
مضى ماوت دنياك كانت مصيبة
فوا هجبا من ذا القرب المباعد
إذا كان محصول الحياة منية
فسيان حالا كل ساع وقاعد
ويقول في قطعة أخرى :

سبقت المالمين إلى المسالى
بصائب فكرة وعلم وهمه
فلاح بمحكنى نور الهدى في
ليال في الضلالة مدلمه
يريد الجاحدون ليطأئذوها
ربأبي الله إلا أن يتمه

نكتفى بهذا القدر الآن من شعره المربى وننتقل إلى رباعياته
نفسها لنضع أمامك بعضاً منها تمثل الخيام أصدق تمثيل كما نمتقد
في تفكيره وآرائه ، وتعب أدق تعبير عن نظرائه التي كان ينظر بها
إلى الحياة

فها هو ذا الآن يتحصر على قوات الشباب وذهاب ربيع العمر
في رباعية هي النرة اللامعة والجوهرة الثمينة في تاج الرباعيات
الخيامية :

أفسوس كانه : جوانى طى شد

وين نازه بهار شادمان طى شد

أن مرغ طرب كه نام أو بود شباب

فرياد ندانم كه كي آمد كي شد

الترجمة للمازنى من الإنكليزية

طلوت بد الأقدار سفر الشباب
وصوحت تلك الفصون الرطاب
وقد شدا طير الصبا واختفى
مضى أنى ؟ بالحق أين قاب ؟

ليس شعر الخيام كله مقصوداً على الرباعيات وحدها ، بل
الثابت أنه كان يمرض الشعر في اللغة العربية أيضاً ، وله في هذا

وهنا وراء بطالب الباري سبحانه وتعالى بحمته في دخول الجنة:
من ينده ماصم رضاي تو كجاست قاريك دلم نور سفای تو كجاست
مارا توبهشت اكر بطامت بخشي
آن بيم بود لطف عطای تو كجاست

الترجمة لرهاوي عن المارسية

أنا حاص فأين منك الرضاء أنا داج فأين منك الغنياء
إنما وقفك الجذبان على الطاعة بيع فأين منك المعطاء
وهنا يقف حائراً مشدوها أمام انزاح الحياة وأسرارها السرمدية
قومي متفكر ندم مذهب دين جمعي متحير ندم در شك يقين
ناكآه منادی در آید زكین كي بيخبرمه داه نه آنت نه أين

الترجمة لرهاوي :

فتة في اليقين والشك هاموا وفريق بالدين راموا لوأذا
وإذا صامح يقول مشيراً ليس ذاكم هو الطريق ولاذا
الترجمة لبيستاني عن الفرنسية والإنكليزية .

وهنا نقلته ذكره المذاب في يوم القيامة فيقول :

حين يارب كنت تجبل طين طالما كنت أنت علم اليقين
كل امرى وكنه سرى الدين

كل ما جثته فنك بحكم منك روحى ومنك لحي وعظمى
فلماذا يوم القيامة في النار أعانى الآلام والأهوال
وهنا تتمثل ثورته على الظالم واحتقاره المادة :

وأجيبى ووافنى لاعتزال رابتماد من محض قيل وقال
رب قفر من المظالم خال ليس فيه عبد ولا سلطان
هو مندى المكان نم المكان

رب كهف تأويه نفس ابى فاق قصرأ طالت ذواه السحابا
وهنا : نحن من التراب وإلى التراب :

وتنمو الأزهار باذا الحبيب من تنور سناؤها محبوب
لك قلب ورفى الأديم قلوب

ضجة اللطف فوق هذا النبات فهو نام من أ كبد النائمات
في مهود فيها السهات مميح لا مفيق منه بهن أهابا
وهنا يخاطب جاره الخراف

أمس أبصرت جازنا الخرافا يجبل الطين كيف شاء اعترافا
وبكيل القدار منه جزافا
وكانى اسمت بين يديه صوت ذات مظلومة نشكويه
آه رفقا فأنت طين رماء أيها الرء لا اسمنى المذابا
وهنا يودع الحياة بقلب دام ونفس تذوب حشرات :

يا نديمى قد آت موت النديم

فأذكرنى ذكرى الصديق القديم

وابكىنى بدمع بنت السكروم

وبكأس الرحين قف فوق قبرى واسكب الخمر فوق عشب وزهر
فرقان إذ ذاك زهر وعشب وأنا الذى كان كوناً وحلا
وأخيراً تراه بقفت لربه ويستغفر ويقول :

رب رحماك ما كسبت ثوابا لا ولا كنت مستحقاً عقابا

إنما قلت ما رأيت صوابا وعزائى الجليل كان الجبابا

وكفانى التوحيد ذخراً فإنى لم أعدد فى دبنى الأربابا

السيد أحمد مصطفى الخطيب

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى
لرحلات الثانية من كتاب

رسالة

لصاحب المزة الدكتور هبى الوهاب عزام بك

سفير مصر فى اليابان

تمن الأول ثلاثون قرشا والثانى أربعون قرشاً على أجره البريد
والجلمان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة